الدور التنويري المتميز لمسجد بانصير بعدن

مسجد بانصير مسجد صغير متواضع يقع بين شارعين مهمين من شوارع مدينة كريتر (مديرية صيره حالياً) وهذان الشارعان هما: شارع المتنبي شرقاً، وشارع المعري غرباً، بناه في مطلع القرن الرابع عشر الهجري احد رجال الخير يسمى عوض بكران بانصير وإليه ينتسب المسجد وهو من أهالي الشحر بحضرموت.

ومايميز مسجد بانصير انه كان محط رجال العلماء والفقهاء وأهل العلم والثقافة والأدب، وقد ساعد موقفه على أن يكون المحطة الأولى التي تستقبل أشهر علماء الدين والسياسة والأدب على مدى نصف قرن ونيف من الزمن إذ كان علماء حضرموت والمهجر عندما يأتون إلى عدن للزيارة أو الإقامة أول مايقومون به هو أداء الصلاة في مسجد بانصير ثم يذهبون بعدها إلى حيث يريدون والسبب في ذلك إنهم يلتقون في الجامع وقت الصلاة بعلية القوم وكبار تجار عدن من أبناء حضرموت الذين كان معظمهم يسكنون بالقرب من الجامع ويؤدون فيه الصلوات الخمس فقد أحاط بالجامع إحاطة السوار بالمعصم عدد من العائلات الشهيرة التي كانت معروفة بكرمها وحسن استقبالها للضيوف وبما تقدمة للوافدين من عون ومساعدات ومن أشهر تلك العائلات عائلة بارحيم، وعائلة الصافي، وعائلة الزوقري، وعائلة المدي، وعائلة باجنيد، وعائلة باوزير، وعائلة الميئة، وعائلة الدبعي، وعائلة منقوش، وعائلة الجيلي وغيرها من العائلات العريقة وكان مسجد بانصير هو ملتقى أرباب هذه العائلات وضيفوهم من الوافدين إلى مدينة عدن وبالذات كبار علماء الدين وفقهاء الشريعة وقادة العمل السياسي ومن أشهر العلماء الذين ترددوا على مسجد بانصير ودرسوا فيه كل من:

١-الشيخ سالم بن محمد بن سعيد باوزير وكان يلقي في المسجد بعض المواعظ.

٢-الشيخ عبدا لله بن طاهر الذي كانت له حلقة في المسجد يقدم فيها دروساً في الفقه وعلوم الدين، ويحضرها عدد من الناس وكان من بينهم محمد علي لقمان، كما ورد في مذكراته.

٣-الشيخ العلامة محمد بن سالم البيحاني قبل انتقاله إلى مسجد العقلاني فقد كان يتردد على مسجد بانصير ويلقي فيه بعض المواعظ الدينية.

٤-الشيخ العلامة عبدالرحمن بن عبيد الله الكاف الذي كان يلقي مواعظ يومية في المسجد قبل صلاة التراويح في رمضان.

٥-الشيخ العلامة الشاعر عبدا لله بن علوي الحداد، والذي كان ياسر الناس بمواعظه وحكمة.

٦-الشيخ العلامة كامل عبدا لله صلاح، القاضي الشرعي لسلطنه لحج، وقضيتها والذي كان يسكن بجوار المسجد، ويلقي فيه بعض المواعظ بين الحين والآخر.

٧-الشيخ محمد مهدي الغرباني قبل أن يصبح إماما وخطيباً لمسجد أبان وهو عالم جليل ومشهور.

٨-الشيخ العلامة سعيد حسن مدي والذي كان من أعيان عدن وعلمائها.

٩-الشيخ العلامة حامد بن علوي بن عبدا لله البار، وهو من علماء حضرموت.

١٠-الشيخ العلامة عبدالله بن شيخ العيدروس، وهو من علماء حضرموت.

١١-الشيخ العلامة علي بن محمد الحبشي، وهو من علماء حضرموت.

١٢-الشيخ العلامة احمد بن حسن العطاس، وهو من علماء حضرموت.

١٣-الشيخ العلامة عبدالقادر بن احمد السقاف، وهو من علماء حضرموت ايضاً.

١٤-الشيخ القاضي محمد بن داود البطاح قاضي عدن الشرعي.

١٥-الشيخ العلامة احمد بن احمد مهيوب قبل انتقاله إلى مسجد الشيخ عبدا لله.

كل هؤلاء وغيرهم من العلماء كانوا يترددون على مسجد بانصير بين الحين والآخر، ويلقون فيه مواعظهم ودروسهم على الناس فاكتسب المسجد بهم مكانة عظيمة وشهرة واسعة غير ان ماتميز به المسجد عن سواه من مساجد عدن، هو كونه ملتقى للمشتغلين في العمل السياسي في شمال اليمن وجنوبه اذ كان مجاوراً لمقر الاتحاد اليمني الواقع في شارع المعري وكان قادة الأحرار اليمنيين الذين يأتون إلى الاتحاد يؤدون فيه الصلوات الخمس جماعة وفيه يلتقون لمناقشة جملة من القضايا الوطنية ويعرضون على الناس بعض هموم الوطن، ويشرحون آراءهم في إصلاح الأوضاع في شمال الوطن، وكان من هؤلاء بعض الكتاب والشعراء الذين يوزعون كتيبهم أو منشوراتهم على المصلين، ومما ساعد على ذلك كون المسجد يقع بالقرب من ثلاث مطابع هي مطبعة إبراهيم راسم في شارع المغري ومطبعتي الجماهير والجنوب العربي في شارع المتنبي وهي المطابع التي كانت تطبع فيها منشورات الحركة الوطنية اليمنية.

وكان بالقرب من المسجد ايضاً مقر رابطة أبناء الجنوب، ومنتدى سالمين عوض باسنيد ونادي الأدب العربي ونادي الشباب الأدبي، والجمعية العدنية، وحزب الشورى وغيرها.

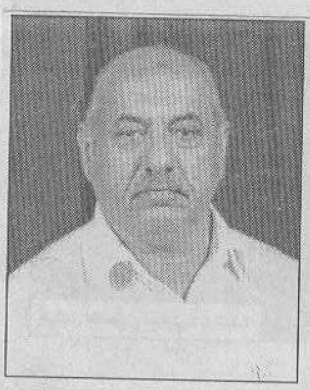

د. علوي عبدا لله طاهر

وكان أعضاء هذه التجمعات وقادتها يصلون في مسجد بانصير وفيه كانوا يتحاورون ويعرضون وجهات أنظارهم إزاء كثير من القضايا المطروحة على الساحة السياسية اليمنية والعربية، وفيه كانوا يوزعون المنشورات والنشرات ويلقون الخطب والقصائد التحريضية وربما كانوا يتلقون فيه التوجيهات والتعميمات السياسية ومما ساعدهم على ذلك كون المسجد محصوراً بين شارعين ومخفي عن أنظار المخبرين لصغره، الى جانب انه لم يكن بعيداً عن المطابع التي تطبع فيها بعض الصحف فكان على مقربة من مطبعة الحظ ومطبعة اليقظة ومطبعة الحرية ومطبعة السلام ومطبعة الفجر ومطبعة الأيام ومطبعة فتاة الجزيرة، وهو ماساعد على حصول المصلين على الصحف مباشرة بعد صدورها، وقبل توزيعها في الأسواق علماً بان موزع الصحف عبده عثمان لم يكن كشكة بعيداً عن المسجد بل كان في حارة الشريف المتفرعة من شارع الزعفران وكان صديقاً لإمام المسجد، فيزوده بالصحف الصادرة اولاً بأول وبصورة مستمرة وبالمجان.

بقي ان نعرف من هو إمام هذا المسجد الذي حظي بهذه المكانة الرفيعة ومن هو قائد عملية التنوير التي شهدها المسجد؟

ومن كان يساعده في هذه العملية التنويرية الرائدة؟

وللحقيقة التاريخية نقول ان الذي كان يقود عملية التنوير في مسجد بانصير هو العلامة السيد محمد عبدا لله طاهر النجدي الشيباني وأخوه العلامة السيد عبدالقادر وهما من أسرة عريقة ينتهي نسبها الى الحسين بن علي رضي الله عنه، وكان جدهم السيد طاهر قد انتقل من ريمه ليقيم في منطقة بني شيبة في الشمايتين بمحافظة تعز وهو ينتمي الى أسرة النجدي الشهيرة في منطقة (كسمة) بريمة وقد استقر في بني شيبة بمقتضى نظام الهجرة الذي كان سائداً آنذاك والقائم على اساس السياق العرفي القبلي حيث كانت القبائل تتعارك فيما بينها وتتقاتل لأتفه الأسباب، فكانت بحاجة الى عرف قبلي ينظم علاقتها فيما بينها في ظل غياب الدولة اذ كانت القبيلة تستمد قوتها تقابلها مع القبيلة الأخرى فيتولد عن ذلك نوعاً من النزاعات المتواصلة والقتال المستمر فكانت القبيلة بحاجة الى أشخاص محايدين من خارج القبيلة يقضون بينهم ويحلون مشكلاتهم ويقضون نزاعاتهم دون ان يكونوا متحيزين لأي طرف من أطراف النزاع فكانوا يشكلون لجنة من رجالات القبائل المتناعة فتسافر الى المدن والأسواق وتلتقي علماءها وتزور مدارس العلم فيها لتختار من بينهم عالما من علماء الدين اوفقيهاً من فقهاء الشريعة او حافظاً من حفظة القرآن ممن يتحلى بالأخلاق الفاضلة والسيرة الحسنة فيأتون به إلى بلدتهم ليعلمهم الدين وبعض النزاعات التي قد تنشأ فيما بين القبائل ويتلوى في الوقت نفسه توثيق عقودهم ومعاملاتهم وتعليم أولادهم القرآن الكريم وأحكام الدين وفي مقابل ذلك تتكفل القبائل جميعاً بتامين معيشته وحسن معاملته وضمان استقراره ليعيش بينهم عزيزاً مكرماً حتى لايضطر للرحيل عنهم لذا فان هذا العالم يحظى بمكانة رفيعة بين الناس وكلمته مسموعة ونصائحه مستجابة وكان السيد طاهر النجدي واحداً من هؤلاء الذين قدموا الى بني شيبة للإصلاح بين الناس وفي منتصف القرن الثالث عشر الهجري وفيها استقرو أنجب ابنه السيد عبدا لله طاهر وقد ارادة ان يكون خليفته فتولى تعليمة وتحفيظة القرآن وبعدها ارسلة الى جبلة وزبيد ليتلقى العلم على علمائها ليعود بعدها الى بني شيبة ليمارس الدور التنويري الذي بدأ فيه وكان السيد عبدا لله طاهر عند مستوى طموحات والدة ولم يخيب ظنه فيه فاستقر في بني شيبة الغرب وبني له داراً في قرية القزحي كما بني ديواناً ومدرسة ومسجداً، فكان يدرس الأطفال في المدرسة ويستقبل الناس في الديوان ليقضي حاجاتهم ويقض نزاعاتهم وفي الوقت نفسه يؤمهم في صلاة الجمعة والجماعة ويخطب فيهم الجمعة والأعياد، ويدعوهم للاستقاء عند انقطاع المطر فاكتسب مكانة رفيعة بين الناس وانتقلت تلك المكانة الى أبنائه واحفادة لان كان حريصاً على تعليمهم وتفقيههم في الدين ومن أبنائه المعروفين السيد محمد عبدا لله طاهر وأخواه السيد عبدالقادر عبدا لله طاهر وكاتب هذه السيرة الذي كان قد قاله مارأي من خراب في تلك القرية التي أسسها أبوه وتركها أبناؤه الذين استقروا في المدينة ليؤدوا رسالة الوالد في مكان آخر، وبتركهم القرية نزح عنها السكان، وهو ماحرك وجدانه ليقول هيا وفي أبيه القصيدة الآتية:

ياقرية خلد التاريخ سيرتها
تحت (النفور) رست دهراً وازمانا
كم فيك من علم تزهو البلاد بهم
افعالهم قد غدوا في الناس عنوانا
حسبت انك قد نلت المنى بهمو
لكنهم كافؤوك اليوم هجرانا
هل تذكرين ابي ياقرية (القزحي)
ذاك الذي كان للانسان معوانا
من كان يتخذ (الديوان) محكمة
اذا اعترى الظلم اطفالاً ونسوانا
يسعى لإصلاح ذات البين محتسباً
من قبل ان تشعل الأحقاد نيرانا
وينصح الناس ان يسعوا بلاكلل
كي يزرعوا الارض او يبنون بنيانا
ويحصدون سبولاً في مواسمها
ويحمدون اله الكون مولانا
ياقرية لبني النجدي قد عمرت
بسيدجاءها يبني مصلانا
وينشر العلم في ارجاء بلدتنا
ويزرع الحب في انحاء مرمانا
كم حارب الجهل في اهلي بلاكلل
وكم انار طريقاً مظلماً كانا
في كل زاوية من قرية (القزحي)
صب المداد ابي علماً وعرفانا
قد كان ياقريتي دوماً منار هدتي
كان للعمل في الظلماء ميدانا

ابناؤه اصبحوا فخراً لبلدتنا
بعلمهم صححوا ماكان بهتانا
وذاع صيتهمو في الناس وارتفعوا
فوق السماكين في الأجواء إعلانا
أتاهم الناس كي يخطوا بقربهم
من نبعهم يرتوي من كان ضمآنا
لكن بعدهمو أدى الى سفر
هجرة جففت نبعاً بمسقانا
واليوم ياقريتي ماذا جرى ياترى؟!
اضحت بيوتك في الاعياد تناسانا
خلت بيوتك من ناس عرفتهمو
ببعدهم قد فقدنا بعض سلوانا
ياقرية عمرت دهراً بسادتها
هاأنت قد نلت هجرانا ونسيانا

وكان إماما مسجد بانصير من الذين تركوا قرية القزحي ليقموا في عدن حيناً من الدهر قدما خلاله عصارة جهدهم لأهالي عدن، حيث كانا يتناوبان الإمامة في المسجد على مدى أربعين عاما تقريباً أقاما خلالها علاقات إنسانية قوية مع أهلها ونسجا علاقات صداقة مع كثير من علمائها ونشأت بينهما وبين رجالات عدن وأعيانها علاقات اجتماعية واسعة وكانا محط تقدير واحترام أهالي عدن جميعهم، للخدمات التي يقدمانها لهم.

فالأخ الأكبر السيد محمد كان إلى جانب كونه إمام المسجد كان معلماً للصبيان القرآن الكريم ومفتياً في الأمور الفقهية ومرجعاً للقضاة في المحاكم في الأحوال الشخصية وشؤون الأسرة وكانت تحال إليه المسائل المتعلقة بالمواريث ليقسمها وفقاً لنظام المواريث الشرعي. ومثله كان أخوة السيد عبدالقادر الذي كان ينوبه في الصلاة إلى جانب تقديم المواعظ الدينية بين الحين والآخر، وقد برع في الطب العربي واشتهر بمداوة مرض الشلل النصفي.

وقد أجبرت الظروف السياسية التي شهدتها عدن في السبعينات كليهما على ترك عدن والاستقرار في القرية حيث تعرضا لمضايقات حالت دون الاستمرار في مواصلة الرسالة ومات كلاهما في القرية بعيدين عن المدينة التي امضيا فيها معظم سنوات العمر.

ونظراً للمكانة التي كان يحظى بها الأخ الأكبر السيد محمد لدى الناس فقد استطاع ان يقنع الناس بتعليم أبنائهم وحثهم على إدخال أبنائهم المدارس، ويتفق مع بعض أصحاب المطاعم والمخابيز على أطعام بعض الطلبة الفقراء ليتمكنوا من مواصلة تعليمهم حتى لايكون الفقر سببا من أسباب تركهم الدراسة . ولما كان بعض الطلبة لايجدون ماوى يبيتون فيه فكان يسمح لهم بالمبيت في تلك الصومعة المتواضعة الملحقة بالمسجد ، والمستخدمة كمدرسة في الصباح وفي تلك الصومعة نشأت إعداد غفيرة من الصبيان الذين تميزوا في الدراسة وتفوقوا على زملائهم واستطاع كثير منهم ان يشق طريقة في الحياة بنجاح وتخرجوا من الجامعات وصار بعهم يتبوأ مراكز رفيعة في المجتمع، ويحمل بعضهم شهادات عليا في مجالات تخصصية دقيقة. ولست مبالغاً ان قلت ان مانسبته ستة من عشرة صبيان تربوا في رحاب مسجد بانصير في الستينات من القرن الماضي هم الآن من إعلام اليمن البارزين ويحظى كل منهم بمكانة رفيعة في المجتمع، ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر الدكتور يوسف محمد عبدا لله عالم الآثار الشهير، مستشار رئيس الجمهورية لشؤون الآثار وكاتب هذه السطور وهو أستاذ جامعي وكاتب شهير والدكتور عبدالمجيد علي مسعود طبيب العيون الشهير ومن أرباب السياسة عبدالغني عبدالقادر ومن علماء الدين الشيخ ناصر الشيباني ومن رجال المال والأعمال علوان الشيباني وغيرهم.

وتقديراً من الناس لشخص إمام مسجد بانصير، واعترافاً منهم بفضلة عليهم أقاموا صلاة الغائب على روحه عندما علموا بوفاته وذلك في بعض مساجد عدن وفي الذكرى الأربعين لوفاته توافد بعض علماء الدين في عدن إلى مسجد بانصير لغرض تأبينه والقوا في حفل التأبين عدداً من الكلمات والقصائد المؤثرة ومما قيل في رثائه هذه القصيدة التي قالها كاتب هذه السطور، والتي ألقيت في حفل التأبين:

أخي (محمد) للأحزان يتركني
مضى إلى الخلد، والأقدار تربكني
قد قيل مات، وقبول الناس أزعجني
وقولهم لم يزل ينساب في أذني
هل مات ذاك الذي بالدين هذبني
وبالعقيدة والقرآن أدبني؟!
هل مات من كان للإسلام داعية
يحذر الناس من أغواء ذي الفتن
ماماتمن علم الأجيال دينهمو

وما انتهى عالم أعطى بلا من
وما انتفى ذكر من كانت محبته
مزوعة في قلوب الناس في عدن
وما التفى مجد من أفنى مسيرته
على كفاف مع الإيمان والوسن
حديثة لم يزل في الذهن يلهمني
في كل حين إذا الأفكار تخذلني
قد كنت اسأله في كل مسألة وكل معضلة باتت تحيرني
تجري فتاواه في الآفاق مسرعة
أحاط فيها بشرع الله والسنن
علم(الفرائض) قد أعلى مكانته
في قسمة الإرث حقاً كان يبهرني
سلوكه كان بالإيمان يضبطه
من طبعة الطهر في سر وفي علن
قد كان نعم الحمى للناس في عدن
وقت الشدائد لم يضعف ولم يلن
في(بانصير) قضى دهرا يؤمهمو
وينشر العلم مجاناً بلا ثمن
أمانة العلم أداها وبلغها
ماضٍ يوماً بمجهودٍ ولم يهن
كم مرة علم الأطفال دينهمو
و(البانصير) شهيد في ربى عدن.